

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠)

كيف يتقرب العبد إلى خالقه

العارف بالله

مولانا

فضيلة الشيخ / ماهر إسماعيل جاهين

رحمه الله ورضي عنه

وحزاه من الأسلام والسلمين خير الجزاء

من المعاني التي يدور حولها الدرس

١) إن أول ما يطالب به العبد المؤمن أن يُحَلَّ ما أحله الله ، وأن يُحَرَّمَ ما حرّم ، طمعاً في الجزاء الذي وعد الله به عباده الصالحين وخوفاً من دخول النار .

٢) العمود الفقري للعبادة هو العزيمة القوية والنية الخالصة لله
(يَأْتِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

٣) صدقت يا سيدي يا رسول الله حينما قلت وقولك الحق :
(أَرْحَنًا بِالصَّلَاةِ يَا بِلَالُ)

وقلت في حديث آخر (..... وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي
الصَّلَاةِ)

٤) على الداعين إلى الله أن يذكروا دائماً قول الحق : (وَأَصْبِرْ
نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُ)

٥) لنعلم جميعاً أن الحق سبحانه وتعالى يُقَدِّرُ ويكتب على عبده المكروه ليصل به إلى المحبوب .

٦) لا يكون من الله سبحانه وتعالى إلا الخير ورؤيتنا للشر تكون بحسب إحساسنا به .

٧) للإيمان لذة وطمأنينة وسعادة لا تعادلها سعادة أخرى
لذا قال أحد الصالحين : نحن في سعادة لو علمها الملوك
لقاتلونا عليها بالسيوف .

٨) الدين الإسلامي لا يعرف الكسل أو التخاذل فالمؤمن الحق
كالنحلة الدَّؤوب لا يعرف للكسل طريقاً : (فَإِذَا قُضِيَتِ
الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ)

إن محبة الله لرسوله عليه الصلاة والسلام إقتضت أن يتلى
الله رسوله بحديث الإفك ليرتع الحب البشري من قلب
الرسول عليه الصلاة والسلام ثم يعيد حُبَّ السيدة عائشة
إلى قلبه ليكون حبه لها ياذن خالقة وهو بهذا عليه
الصلاة والسلام يتخلص من كل حُبِّ بَشَرِي .

كيف يتقرب العبد إلى خالقه ؟

نحمد الله • ونصلي ونسلم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعثه ربه رحمة للعالمين ، ونسأل المولى العلي القدير أن يميتنا على ملته ، وأن يحشرنا في زمرة • وأن يسقينا من حوضه شربه لا نظماً بعدها أبدا •

(روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - إن الله عز وجل - قال : من عادى لي ولياً فقد أذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته)

إن أول ما يطالب به العبد المؤمن أن يحل ما أحله الله ، وأن يحرم ما حرم طمعا في الجزاء الذي وعد الله به عباده الصالحين • وخوفا من عقابه الذي أوعده به العصاة (وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه)

وفي آية أخرى يقول في وصف المؤمنين : (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) .

في الآية الأولى أمر الله حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم .
وكل من آمن برسالته بالصبر بأن يجس نفسه مع المتقين من
عباده ، الذين يَصِلُونَ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ ذَاكِرِينَ الله عز وجل .
وأثنى عليهم بما مَيَّزَهُمْ به من إخلاص خصلهم به وحدهم حيث
الأصل في العبادة ابتغاء وجه الله والدار الآخرة (وَمَا لِأَحَدٍ
عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ
يَرْضَى) .

وأحب أن أبين أن مما يُيسِّرُ العبادة ، وَيُقَرِّبُ العبد من ربه صدق
عزمته وهي من أهم الأمور التي تُقَرِّبُ العبد من ربه . بمعنى
أنني اليوم صليت المغرب ، أنا مطالب بعد هذا بأن أعقد النية
على أن أؤدي صلاة العشاء في وقتها . كما أعزم مسبقا على
أن أصلي الصبح إذا كنت من الأحياء بمشيئة الله . هذه
العزيمة لا تُكَلِّفني أدنى مشقة ، لكنها مهمة وضرورية جداً .
وبها أي بالعزيمة الصادقة يُيسِّرُ الله لعباده العبادة ، ويعينهم
على إتقانها . و بهذا يتقربون إلى الله سبحانه . ولتظنوا

إخواني إلى عظمة التصوير القرآني ، في قول الحق تبارك وتعالى : (**يُحْيِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**) إشارة واضحة إلى ما لقوة العزيمة من نمو في ثمرة الأعمال وعندما أصطحب هذه العزيمة القوية معي طيلة شهر رمضان يحمل المولى عز وجل عني مشقة الصوم ، فلا أشعر بالجوع أو العطش ، تأملوا إخواني (رحمنا ورحمكم الله) هذه اللفتات العالية في فقه هذا الدين العظيم يقول رضي الله عنه : إننا حينما يؤذن المغرب في رمضان نفرح ونسرّ ، لأننا تخلصنا من صيام يوم ونعتبر أن الإفطار مرحلة وسطى بين الصيام : لأن الحق سبحانه بقول : (**ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَلِ**) فنحن حينما نفطر نتناول الفطور بأذن الله لنستأنف بقيه الصيام بإحياء رمضان بقيام الليل ، فالمؤمن حينما يتناول طعامه يتناوله لا ليقطع الصوم ، بل يأكل ليعينه الله على إتمام العبادة المفروضة حتى يصل بالصيام إلى الغاية المنشودة التي بينها الحق بقوله (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**) فما شرعت صلاة القيام إلا لتكون أيام رمضان هي الأيام التي تتأكد فيها صلاة الليل ويكون المؤمن بين صيام بالنهار وقيام

بالليل لِيَقْوِيَ جناحا الفريضة • وعلينا أن نستحضر معا حينما
نتناول الفطور أننا لا نقطع الصيام بل نفعل هذا لإتمام
الصيام • فَيُثَبِّتُنا الحق على هذه النية ، ويعيننا بَعْدُ على قيام
الليل • فاصطحاب النية ، وقوة العزيمة وصدقها من أكبر ما
يقرب العبد من خالقه •

عرض الشيخ بعد هذا ما قاله سيدنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم لبلال حينما أقام الصلاة (**أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ يَا بِلَالُ**) وفي
حديث آخر : (**وَجَعَلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**) - انظروا -
نفعنا الله جميعاً بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام - ما
تحدثه الصلاة المقبولة في نفس المؤمن من طمأنينه ، وما تشييعه
في قلبه وجسده من سكينه • وكيف أن النفس المؤمنة لا
تهداً ولا تستقر ولا تسعد إلا بالصلاة • ولـهذا كان
التعبير النبوي الشريف (**أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ نَعْمَ بِالصَّلَاةِ /**
بِالصَّلَاةِ يَا بِلَالُ) •

مرة ثانية ننظر إلى التعبير النبوي الآخر (**وَجَعَلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي**
فِي الصَّلَاةِ) ويحضرنا ما سمعناه من شيخنا في معنى هذا

الحديث حيث تناوله مرة أخرى غير هذه المرة ، ماذا قال في هذا الحديث الشريف ؟

جاء في الحديث ما معناه (**حُبِّ إِلَى مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَ :
الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة**) •

قال لنا : انظروا إلى دقة التعبير النبوي الشريف (**حُبِّ**)
بالبناء للمجهول أو للمفعول كما يقولون : بمعنى حسب
ما أعدني الله للرسالة ليس لي حظ في الدنيا ولا تعلق بها ،
ولكن الله سبحانه جعلني أتناولها مسaire للبشرية فقط
لكن الله هو الذي حُب إلى الدنيا لأمثل الجانب البشري الذي
عليه الناس نأخذ هذا من قوله عليه الصلاة والسلام
(**دُنْيَاكُمْ**) حيث أضاف الدنيا إلى الناس ثم قال : النساء ،
والطيب - يقول الشيخ رحمه الله ، بقوله عليه الصلاة
و السلام (**وَجَعَلَتْ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**) بهذا التعبير
أَلْغَى تعلقه بالنساء ، و بالطيب ، وبين أن سعادته كلها ،
وراحته كلها وأمنه ، وأمانه ساعة وقوفه بين يدي ربه يتناجيه •
نستطيع أن نقول أن معنى قول الرسول عليه الصلاة والسلام
(**أَرْحَنَا بِالصَّلَاةِ**) قد وضح •

لكن الشيخ لم يفته أن يعقد مقارنه بين ما نحن عليه اليوم من حال لا يرضي الله وبين ما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله (**أرحنا بالصلاة**) قال لكن واقعنا اليوم يقول : أرحنا من الصلاة كأنا نريد أن نتخلص من حمل ثقل علينا .

هذا و المتأمل للآية الكريمة : (**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**) مدحهم الله بالباعث . وبين أن هؤلاء هم صفوة القوم الذين يجب أن ينالوا من الرسول صلي الله عليه وسلم كل عون ، لأن هؤلاء القوم هم الذين سيكون نشر الدعوة علي أيديهم ، فعليه أن يربهم ليعدهم الإعداد الطيب . ومن طبيعة الحياة أن الأغنياء يترفعون في كل أمة ، ويتعالون علي الفقراء - وقال : هل شاهدتم ذات مرة أن محافظاً من المحافظين جلس ليستمع إلي أحد المحدثين الذين يدعون إلي الله . اللهم إلا القلة النادرة .

من هذا المنطلق كان أغنياء قريش يطلبون أن يخص سيدنا الرسول عليه الصلاة والسلام هم يوماً وحدهم ونحن نري دائماً

أن الفقير إذا حضر لا يذكر ، وإذا غاب لا يفتقد . وقول الحق سبحانه : (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) : نحن نعلم أنه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) فليس لله وجه وإنما المراد بذلك إيمانهم بصفات الجمال و الجلال فالليل مثلاً من مفعولات صفات الجلال ، والنهار من مفعولات صفات الجمال ، الشدائد التي تزل بالإنسان من تجليات صفات الجلال ، و السرور و السعادة وكل ما يشعر بالطمأنينة من صفات الجمال - فالغضب من صفات الجلال ، و الضحك من صفات الجمال ، فلولاً تجليات صفات الجمال لإنعدام السرور . ولذلك أضحك المستمعين وقال هل رأيتم حمراً يضحك ؟ ولكن خلق الله الضحك ليميز الإنسان عن الحيوان .

لولا تجليات صفات الجلال لما استطعت أن تربي ولدك . ولولا صفات الجمال لما شعرت بالجوع لأن لذة الإنسان في إحساسه بالجوع ، ولذا يقبل علي الطعام برغبة . واعلموا أن الله سبحانه وتعالى يَقْدُرُ ويكتب عليك المكروه ليصل بك إلي المحبوب ومعني هذا انه سبحانه يكتب علي عبده المعصية ، وهي مكروهة وبغيضة إلي الله وإلي الصالحين من

عباده ليوصلك إلى المحبوب و هو التوبة (**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ**
وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) •

و المسلم حينما يقع في المعصية يشعر بالندم ، فيعود إلى ربه
تائباً • وهو بإحساسه بالذنب سيستغفر الله بحرارة • وهذا
أمر محبوب إلى الله ، لأن العبودية الحقة في الذلة والإنكسار
كما بينا في غير موضع •

وكما قلت سابقاً إن الله لا يعاقب عبده علي ذنب ارتكبه ، أو
علي معصية فعلها ، لأنه لن يقع شئ في ملك الله إلا بمراده •
إنما يعاقبه علي تأخير التوبة والمؤمن يرضي بقضاء الله عليه ،
خيرهُ وشرهُ ، حلوه ومره • ومعلوم أنه سبحانه لا يكون منه
شر ، لأن الخير كله بيديه • ولكن الشر بحسب إحساننا به •

ومما يؤيد هذا قول الحق (**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ**
تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ
بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَي كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) انظروا إلى قول الله بعد
أن قال الله (**تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ**
وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) •

قال الحق بعد هذا (بِيَدِكَ الْخَيْرُ) ليعتقد المؤمن أنه لا يكون من الله إلا الخير .

بين الشيخ بعد هذا أن التقوى مركبة من ثلاثة أشياء . فعل الأمور - و ترك المحذور - و الرضا بالمقدور . ومعنى هذا أن المسلم إذا فعل أمراً يرضي الله سبحانه وتعالى فقد تقرب إلى الله بخطوة ، وإذا ابتعد عما نهى تقدم بخطوة ثانية ، فإذا رضي بالقضاء و القدر فقد تقرب إلى الله بخطوة ثالثة . هذا ولا يغني واحد منها عن الآخر .

و لتوضيح هذا مسلم أدي الحج و العمرة . لكنه ارتكب المعاصي . هل هذا المسلم تقرب إلى ربه ؟ طبعاً لا لأنه لم يترك المحذور بل تجرأ على خالقه و ارتكب ما يغضبه . وقس على هذا غيره .

ولنعلم جميعاً أن المعصية لن تقع من العبد إلا إذا أرادها . كما أن مرتكب المعصية : ارتكبها في مكان ما ، وفي زمان ما : والمكان و الزمان كلاهما ملك لله ، ولذلك يحاسب الله العبد على الاختيار الذي ميز الله به الإنسان ، حيث خلق له عقلاً وميزه بالإرادة كما رزقه حرية الاختيار ، والإنسان وحده هو

المخير . و غيره من المخلوقات مجبر ومسير : فالملائكة
مجبورون علي الطاعة ، و الجمادات مسخرة كما خلقها الحق ،
ولذلك لما خلق الله السموات والأرض قال لهما عز وجل :
(ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) .

ونحن نعلم أن الدين الإسلامي ممثل في ثلاثة أمور - إيمان -
اسلام - إحسان يتمشي هذا مع قول الله (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) مرة ثانية (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) . ثالثاً (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

ولتوجيه هذه الآيات نقول ، ومن لم يحكم بما أنزل الله عقيدة
بعدم صلاحية ما أنزل فهو كافر . ثانيا : ومن لم يحكم بما أنزل
الله اجتنابا فهو فاسق ثالثاً (ومن لم يحكم بما أنزل الله إثمًا
فهو ظالم) ولا تعارض بين الآيات مطلقاً كما بينا . بل لكل
منها هدف خاص وصدق الله القدير في قوله عز وجل (وَبِالْحَقِّ
أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) .

تعرض الشيخ بعد هذا إلي الآية الكريمة التي طالما ذكرت في
مواقف كثيرة وهي قول الحق :

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ) •

فضلاً عن أن الآية ذكرت كثيراً : لكننا سمعنا الآن من الشيخ توضيحاً جميلاً في قول الحق (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ) بين أن هذا الصنف من المؤمنين ظلم نفسه بأن حرَمها من متع الإيمان لأن للإيمان لذة وطمأنينة وسعادة لا تماثلها سعادة يدل علي هذا ما قاله أحد الصالحين : نحن في سعادة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف •

لأن الإيمان يربطنا بالله و اليوم الآخر • ومعني (مُّقْتَصِدٌ) كما قلنا سابقاً : الذي يكتفي بالفرائض و هذا ما يتمشي مع قول الله في الحديث القدسي : (مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مما افترضته عليه) •

ومعني العبودية لله أن يحرص علي الطاعات التي تقربه من ربه مصداقاً لقول الله : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) وفي التعبير بقول الحق (يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ) معني هذا أن ينقطع عن كل ما سواه مثل قول العبد لا إله إلا الله أي لا يعبد سواه •

نظير هذا قول الحق (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) وتناولت هذه الآية ذكر
اليوم الآخر ، لأنه مرتبط بالثواب و العقاب • والإنسان في
الحياة لا يعمل إلا إذا حصل علي مقابل تلك طبيعته •
وذاك تركيبه هو دائما محتاج إلي غيره لا يستطيع أن يستقل
بنفسه أما الحي القيوم سبحانه فهو قائم بذاته غير محتاج إلي
غيره •

وهذه هي الألوهية التي من أجلها كان إرسال الرسل : (اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) •

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)
كل المخلوقات محتاجة إليه • لا تضره معصيتنا ، ولا تنفعه
طاعتنا جل عن الشبيه والنظير (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ) جل جلالك يا الله • يا من رفعت السماء بغير عمد ،
يا من تكفلت بأرزاق العباد ، يا من خضع لعظمتك كل ما
عداك • عز جاهك ، وجل ثناؤك يا الله يا الله يا الله •

كيف يتقرب العبد إلى خالقه ؟

تأتي الآية بعد هذا لتبين حرص المؤمن علي التقرب إلى الله .
فقلت : (**وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**)

إيمان المؤمن بمضاعفة الجزاء يدفعه دفعاً إلى التقرب إلى الله بكثرة الذكر ، لما يري فيه من مضاعفة الحسنات التي تزيد أحيانا عن سبعمائة ضعف . ولن تضاعف هذه المضاعفة الكبيرة . إلا إذا توفر في المؤمن عنصرا الإخلاص ، و المراقبة لله عز وجل .

(**وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**) يصبح المؤمن ويمسي وقد أخضع كل سلوكياته ، وأخلاقياته للمنهج الذي جاء به الرسول عليه الصلاة و السلام ، ونزل عليه من السماء .

ويصبح تعامله مع الناس معاملة إيمانية ، لأنها جاءت نتيجة طبيعية لما غرسه الإيمان في قلبه . ومن هنا كان تفسير الشيخ (رحمه الله) **جَمِلاً فِي قَوْلِ الْحَقِّ (سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ)** نفي أن تكون السمة هي العلامة البارزة في الوجه . ولكنه قال كل تعاملاتهم نابعة من إيمانهم . فالصدق يلزمهم ، ومراقبة الحق مشاهدة في بيعهم وشرائهم .

وهم القوم أصحاب الهمم القوية ، و العزائم الشديدة .
لأنهم يستمعون دائماً إلى قول الحق (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ
فانتشروا في الأرض . وابتغوا من فضل الله) فهم كالنحلة
الدعوب . لا يعرف الكسل طريقاً إلى قلوبهم .

(فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) المؤمنون يعيشون
في ظلال أنوار الصلاة التي تقربوا بها إلى ربهم . ومن
عاش في أنوار صلاته نهته الصلاة تلقائياً عن الفحشاء
والمنكر وأصبح يحل ما أحل الله ، و يحرم ما حرم .

بهذه الأمور مجتمعة نستطيع أن نقول إن هذا هو العبد
الموفق الذي تكتفه أفضال الله ورعايته ! وهنا نتذكر الحديث
الشريف الذي بين فضل الإيمان علي صاحبة (يَا عَجَباً لِلْمُؤْمِنِ
، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَعَجَبٌ ، إِنْ تَزَلَّ بِهِ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا
له ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا له . وليس ذلك
إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ) .

لا زلنا مع قول الله تبارك وتعالى (وذكر الله كثيراً) أي في
جميع الأحوال . وهذا هو العبد المخلص الحريص علي
التقرب ، والوقوف علي باب خالقه ، فهو لا يعمل . بل

أصبحت أنفاسه ذكرا • تناول الشيخ بعد هذا قصة رائعة :
كان سيدنا بكر بن حماد عالما كبيرا من فقهاء أحناف بغداد -
حيث استأجر حمالا لينقل له بضاعته فوجد الحمال يردد
ويقول سبحان الله والحمد لله - استغفر الله العظيم •

فلما سمعه لا يقول أكثر من هذا تعجب الشيخ بكر مما سمعه •
(هنا عقب الشيخ وقال : إن مما ابتلي به العلماء و العباد رؤية
النفس وهي أخطر من حجاب المعاصي عند عامة الناس) •
العتال يقول في كل خطوة - الحمد لله - أستغفر الله
لم يعجب الشيخ بكر ترديد الرجل لهاتين الصيغتين فقط •
فقال له بلغة العلماء • ألا تفقه غير هذا ؟
(كالمستكر عليه) •

رد الحمال وقال : يا مولاي : أنا أفقه كتاب الله عز وجل •
حفظا ودراية وتفسيرا • وأفقه اجتهد العلماء في فقه السنة
وأحفظ أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام نقلا ورواية -
لكني وجدت نفسي بين أمرين ؟

بين نعمة - ومصيبة - فالحمد نعمة من الله • والذنب
مني - فأنا أقابل النعمة بالحمد - و الذنب بالاستغفار

فذلك وردي وهنا تنبه الشيخ قائلا : كل الناس علماء حتي
جمال بغداد أفقه مني .

الحمال لم يأت بجديد : بل كله من السنه . فسيدنا رسول الله
صلي الله عليه وسلم يقول : سيد الاستغفار (اللهم أنت ربي
لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا علي عهدك ووعدك ما
استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ،
وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) .

فذكر الله لمن أراد القرب يجب أن يظل في جميع الحالات حتي في
دخول الحمام ، و الخروج منه ، عند النوم ، الاستيقاظ ، عند
الخروج من المنزل أو الدخول فيه .

ثم أشار الشيخ إلي عدم مفارقة الشيطان للإنسان طيلة الأوقات
بدليل الاستعاذة منه عند دخول الحمام (أعوذ بك من الخبث

والخبائث) .

فليملأ المؤمن وقته بالطاعة : و العبد إذا وصل إلي هذه المرتبة
رفعت عبوديته هذه مستوى النفل إلي الفرض فطوت له مسافة
السفر إلي ربه . ومعني رفع النفل إلي مستوى الفرض أن أنسه
بالطاعة جعله يحسن أداء النوافل ، كما يحسن أداء الفرائض

خشوعاً في الصلاة وتذلاً وخضوعاً ، وفي غير الصلاة يشاهد
فضل الله في توفيقه ، وفي الصدقة • و الصيام يخفيهما :
وشعاره في كل أحواله (رَبَّنَا لَا تَوَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا •
رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا
وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا
أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) •

والنوافل من شأنها أن تجبر الفرائض • وتكمل نقصها ،
والعبد بالنوافل طالب ، و بالفرض مطلوب • والله يسمح
لعبده بإبراز شخصيته في حالة واحدة • وهي العبودية •
و العبودية هي جواز المرور للمسلم و التفاوت بين المؤمنين
موجود بنسبة (وَحَبِّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ) بمعنى أن المؤمن يحصل
علي قربه من ربه بقدر ما غرس فيه من حب للإيمان حتى
في مقام الإحسان فيه تفاوت (وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا) بعد
هذا قال الله : (مَا يَزَالُ يُتَّقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ) •
(حتى) حرف غاية • و الغاية بعيدة وبعيدة • ومحتاجة الي صبر
، وتصابر وعندما يصل العبد الي درجة الحب يحبه الله • و الله
لن يحبه إلا إذا أفرغ العبد قلبه من ماله وولده ، وكل ما سوى

الله سبحانه وتعالى فمن عاشت الزوجة في قلبه ، أو عاش أولاده في قلبه ، أو عاش ماله في قلبه فلن يتقرب إلى ربه . وبالتالي لن يحبه ربه . ما دام قلبه ممتلئاً بالشركاء .

ولنا العبرة كل العبرة في قصة الإفك : ومن عدالة السماء ، ومن رحمة الله بنبيه و المؤمنين أنه سبحانه نفاه من البداية (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . . الآية) . ومهما ادعي المسلم أو الزوج أنه يحب زوجته لله . أو إحدى قريباته لله (لإخلاصها لله وزيادة الإيمان ، و الحياء) فهو من غير شك لا يمكن أن يتمحص كل حبه لها لله بل لابد فيه من الجانب البشري ، وإن خفي علينا ذلك : ولذلك كان التعبير القرآني دقيقاً في قوله تعالى : (فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) ومن المعلوم أن الرجل يقبل الخطأ يقع من الزوجة ، و يتحملة ويتجاوز عنه . لكن إذا كان هذا الخطأ من جانب العِرض والشرف . فمن المحال أن يقبله أي رجل كائناً من كان . ولا يمكن أن يغفر لها هذه الذلة . ولو كان من ضِعاف الرجال ، لأن الخيانة الزوجية تضرب الرجل في مقتل . ولما كان الحق سبحانه وتعالى يحب رسوله

الحب كله . فالله سبحانه يغار أن يري في قلب النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً غير حبه له . لذلك كانت الثمرة من حديث الإفك هو أن نزع الله سبحانه وتعالى من قلب رسوله الجانب البشري ، حتي إذا لم يصبح في قلب حبيبه ومجتباه شيئاً سوى الحق: أصبح هذا القلب الطاهر النظيف هو الجدير بأن يتبرل عليه وحي الله ، وأنوار قرآنه العظيم : وتصبح النتيجة واضحة أن الله سبحانه وتعالى أخرج من قلب الرسول صلى الله عليه وسلم حب عائشة . ثم أدخل حبه في قلب الرسول عليه الصلاة والسلام . لكن دخول الحب في هذه المرة بإذن الله . لأنه برأ عائشة من فوق سموات سبع . وضح الشيخ بعد هذا معني قول الحق : (**لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ، وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ**) الفرد منا لو سعي أحد إليه بوشايه تشكك الرجل في زوجته يستبعد هذا لما يعلمه في زوجته من عفه وطهر ، ولأن ثقته بعفة زوجته كبيرة ، فهو يسرع إلي تكذيب الخبر فور سماعه ومن أجل هذا عاتب الحق عباده المسلمين وبين لهم أن زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام إن لم يفقن غيرهن في العفة فهن لن تكون الواحدة

منهن أكثر غفة من زوجات الرسول عليهم الصلاة والسلام .
وربما كان الهدف و الغاية العظمي من هذا الدرس . أن
خلوة الأجنبي بالأجنبية فيه الخطورة كل الخطورة . ولو كان
ذلك علي أعلي مستوى ، وحينئذ لابد من القيل و القال لننظر
الي قول الله سبحانه وتعالى (**أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**) .

يفهم من الآية الكريمة أن الله سبحانه أذن لرسوله صلى الله
عليه وسلم : أن تعود السيدة عائشة مرة أخرى إلى قلب
الرسول عليه الصلاة والسلام ببشيرته كما أذن للأنبياء
والصادقين والمسلمين من أهل الجنة بمناكحة الحور العين .
ونحن حينما نستمع إلي حديث السيدة عائشة رضي الله عنها
حينما سئلت عن أوضاع الرسول عليه الصلاة والسلام
داخل بيته : قالت رضي الله عنها : إن أمره كله لعجب ثم
روت الحديث : بمعنى أن الرسول عليه الصلاة والسلام في
كل أموره كان غير طبيعي ، لأنه متصل بالسماء . كان معي
في ليلة من ليالي^١ (ثم قال الشيخ انظروا إلي دقة التعبير في
قولها) علي فراش واحد ، وتحت لحاف واحد . وجسمي في

جسمه • فانتفض (بمعنى رفع الغطاء وقام) فقالت السيدة

عائشة رضي الله عنها • مالك يا رسول الله ؟

قال لها دعيني يا بنت ابن أبي قحافة أتقرب الى ربي(أسقط

سيدنا أبي بكر رضي الله عنه) (يشير بهذا سيدنا رسول الله

صلي الله عليه وسلم إلى أن العبد الذي يريد أن يتقرب إلى

ربه لا بد أن ينقطع عن خلقه ، وعن كل ما سوى الله سبحانه

وتعالى) : (ثم قالت السيدة عائشة لسيدنا رسول الله صلي الله

عليه وسلم : يا رسول الله إني أحب قربك • ولكني أوثر

هواك • ثم انطلق ولكنه أبطأ عليّ في عودته إلى ^{أن} قالت السيدة

عائشة لقد تحسست عليه في بيوت نساءه بيتاً بيتاً • فلم

أجده • لكنني وجدته بالمسجد قد أطال السجود حتي ظننته قد

قبض • ولكنني رأيته بعد ذلك حرك إصبع رجله • وما

أن انتهى حتي ناداها يا عائشة ثم سألها بعد عودته ^{إلى} حجرتـه

أين كنت يا عائشة ؟ فأخبرته بما كان من أمرها • فقال عليه

الصلاة والسلام : أتظنين يا عائشة أن رسول الله قد خاس بك؟

(أي غدر بك) ما كان رسول الله يفعل هذا • قالت السيدة

عائشة : حنانيك يا رسول الله • لا تؤاخذني فيما كان مني
فأنا لا أظن بك ذلك ولكن طبيعة النساء قد غلبت علي) •
ثم وضع الحديث القدسي الشريف (كُنْتُ سَمْعَهُ) معني
الْكُنْتِيَّه نحن نشاهد أن جوارحنا مسخرة للقلب • بمعني لو
أردتَ النَّظَرَ إِلَيْكَ لنظرت • لو أحبيت أن اشرب لتناولت
الكوپ • لو أحبيت الصلاة لذهبت إلى المسجد • و هكذا •
إذا فمعني (كُنْتُ سَمْعَهُ) أن المسلم حينما يتقرب العبد إلى الله
يحصل له فناء ذاتي بمعني أنه كما كان يوجه جوارحه بإرادته •
أصبحت جوارحه تلقائياً تتحرك وفق مراد الشريعة الإسلامية
وبمراد الله • فلا يرى غير الله و تصبح جوارحه تأخذ دورها
طبيعياً بما يرضي الله دون تكلف أو مشقة (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ
يَهْدِ قَلْبَهُ) ويصبح هذا العبد وقد عافاه الله من الكبائر ويكون
من قال الله فيهم : (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ
إِلَّا اللَّعْمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) •
والآية تقول (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) •

بمعني أن الله يحفظهم من الكبائر • كما انه متفضل عليهم بعدم الإستمرارية في المعاصي بدليل قوله عز وجل : (إذا مسهم طائف) (ولئن سألتني لأعطينه) بمعنى أنه بلغ مرحلة لا يلجأ فيها إلى غير ربه ، ولا يسأل سواه • وفي هذه المرحلة لا يرد للعبد دعاء • والعبد في هذه الحالة لا يطلب الدنيا في دعائه •

ومعني أن يصبح العبد ربانياً : أي في الانتساب وليس في القدرة ومعني (لئن سألتني لأعيدنه) من باب (اسألوا الله وأنتم موثقون بالإجابة) •

فالحق يلهمه الدعاء الذي تكون فيه الاستجابة • واستدل بقول سيدنا عمر رضي الله عنه انا لا أحمل هم الإجابة ولكني أحمل هم الدعاء • فإذا ما ألهمت الدعاء كانت الإجابة معه •

﴿ وكن فيكون ﴾ ليست في الخلق والإيجاد ومن صفات هذا العبد أن لا يشتهي أجنبية ، لأن جوارحه محفوظة من قبل الخلق • وهنا سأل أحد الحاضرين : ما الفرق بين الخلق والإيجاد ؟ فأجاب رضي الله عنه الكوب الذي أمامي خلق لأنها

صنعت بالمصنع • والإيجاد : هو طرحها وجعلها في الأسواق •
والخلق والإيجاد يكون في جميع التصرفات التي خلق من أجلها •
والخلق هو الخلق العام والإيجاد تحقيق الرسالة التي خلق من
أجلها • • وإلى هنا انتهت الجلسة المباركة ولم يفت الشيخ
رحمه الله أن يختمها بالدعاء الآتي :

اللهم اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع
الأبرار ، ألقنا اللهم بالأخيار • اللهم مد في آجالنا ، وبارك في
أعمارنا • وحصّن أموالنا ، زين ظواهرنا بخدمتك • يواطئنا
بمعرفتك • أسرارنا بمشاهدتك • عمر قلوبنا بالإيمان • اللهم عمر
قلوبنا بالإيمان ، أبداننا بالصحة والعافية ، وأملأ بيوتنا بالخيرات ،
أمدنا بالعلوم والمعارف • اللهم لا تدلنا ، ولا تحوجنا إلى غيرك يا
الله ، يا الله سألناك فلا تردنا ، رجوناك فلا تخيبنا ، وقفنا على
بابك فلا تطردنا • وقفنا إلى ما تحب وترضى • بارك في
أزواجنا وذرياتنا ، استر عوراتنا ، زوج بناتنا يا الله بقولك كن
فيكون ، واحفظ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها •
بارك لنا فيما رزقنا • في زرعنا وضرعنا وأموالنا ، وجيراننا •
يا الله يا سامع الأصوات ما يجيب الدعوات • يا واحد ، يا أحد ، يا
فرد ، يا صمد • سألناك فلا تردنا وتحولنا إلى غيرك • يا الله
يا الله • وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه
وسلم •

وعلي آله وصحبه أجمعين •• يا رب العالمين

٣ رمضان سنة ١٤٢٥ هـ

١٧/١٠/٢٠٠٤ م